من روائع الأدب الروسي

رثاء !...

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأديب فيصل عبد الله

في صبيحة يوم صاحٍ مشرق مات « عضو التحكيم » (كيريل أفانوف بابيلونوف) صريع المدامين اللذين كثيراً ما أوديا بحياة الروس : إدمان الخمر وفظاظة الروح . . . وكان الناس في شغل بتشييع موكب جنازته الذي كان في طريقه إلى القبر ... إلا أن (بولافسكي) وهو صديق حميم للفقيد ، أسرع فامتطى عربة أدت به إلى صديق له يدعى (زابوكين) . ولزابوكين هذا قدرة على ارتجال الخطب فائقة ، فهو يقولها أنى كان وحيثما يدعى ، فلا تعوقه سنة ولا حمى ولا سكر عن ارتجالها . . . سواء أكان في مأتم يرثي ، أو في حفل بلهج ويشيد ، كانت الكلم تتدفق من فيه كالماء غزيراً سلسالاً ...

وكان هذا ما حدا ببولافسكي أن يسرع إليه ، ولا سيما والخطب الذي ألمّ يحتاج إلى خطيب يعدّد مناقب الراحل الفقيد كزابوكين ... وقال بولافسكي لزابوكين حيثما لقيه :

— إنني آت لأدعوك ... فهيا يا صاح ارتد معطفك واتبعني . لقد مات اليوم أحد زملائي ، وموكب جنازته في طريقه الآن إلى القبر . وليس لنا في مثل هذه الخطوب غيرك . . . ليس لنا من خطيب راثٍ مفوّه سواك ... ثق يا صاح أنه لو كان الميت وضيعاً مركزه لما أزعجتك . ولكنه (الأمين) ... فلا يليق بنا أن نوسده التراب دون ما مراثٍ تلقى أو خطاب تقال ...

فتتاءب زابوكين وقال :

— الأمين ؟ آه . أتعني ذلك السكير ؟

— إنه هو ... ولكن لا تنس يا عزيزي أن مادبة عشاء ستؤدب ، وأجر العربة سيدفع ، هيا يا صاح فما عليك إلا أن تلقي بإحدى خطبك على القبر ... وستلمس بعينيك مدى إعجاب الشيعين بك وتقديرهم لك ...

فأجاب (زابوكين) طلبه دون ما تردد ولا إحجام . . . وتكلف الحزن العميق ناهياً لما سياق . ثم قال لصاحبه : إنني أعرف (الأمين) .. ذلك الوغد الرئيم . . عليه رحمة الله ! وأدركا الموكب وقد بلغ المقابر ، وحُط النعش على الأرض ، ووقفت أم الفقيد وزوجه وأختها تذرفان الدمع الهتون — تبعاً للعرف — وما إن أنزل النعش في القبر حتى أعولت زوجه وصاحت باكية : دعوني أرحل معه. إلا أنها لم ترحل معه ؛ مع أن أحداً ممن حولها لم يحل دون ذلك. ولعلّ ما حال دون أن تشارك رمسه ذلك الراتب التقاعدي الذي ستتناوله . أما (زابوكين) فقد سكت حتى شمل الجمع السكون ، فأدار بصره في الحاضرين وبدأ خطبته قائلاً :

يا ترى أبصري وسمعي صادقان ؟! أم إنني أشهد حلماً مرعباً يبدو لي فيه هذا الرمس المظلم الرحيب وهذا الحشد الباكي الحزين ... وا أسفاه ... إنها الحقيقة . فليس ما أراه حلماً ، وليست أبصارنا — ويا للأسف — بخادعة .. إن من كان حتى الأمس يفيض صحة ونشاطاً .. قد مات وورى في التراب وأصبح ذكرى تستدر الدمع الساخن الغزير. لقد سلبه الردى منا ، وهو لا يزال في عنفوان قوته

وبرأته .. وأوجز فتوته ونشاطه .. وإن يك متقدماً في السن .. فإنه خسارة فادحة بنا .. من ذا الذي يستطيع أن يحتل مكانه في قلوب عارفيه ... لدينا أيها السادة كثير من الموظفين .. إلا أن (بروكوفي أوزبتش) كان جوهرة بتيمة فيما كان يزدهي به ويفخر. وكان — أيها السادة — المثل الأعلى للرجل الكامل الرفيع بخلقه ، السامي بنفسيته . لقد كان الفقيد يأبى الرشوة فلم يرتضها يوماً . وكثيراً ما كان يبدي مقته واحتقاره لمن كان يلح عليه في أخذها وتقبلها. لقد كان يرفضها كل الرفض ويزدري ضعاف النفوس ممن كانوا على نقيضه . كما لا أظنكم تجهلون أنه كان يهب راتبه التافه على مشهد منا لزملائه الموزين. وها أنكم الآن تسمعون بآذانكم نحيب الأرامل والأيامى اللائى كن يعشن من فيض إحسانه . لقد ذهب ذلك الذي وهب حياته للبر ، ونذر نفسه للخير ، وإنكم لا تعلمون بلاشك — أيها السادة — أنه كان أعزب ولم يزل كذلك حتى وسد التراب ... إنني لأتصوره الآن بوجهه المشرق الحليق وبسماته الحالمة العذاب ، ويخيل إلى أنني أكاد أسمع صوته الرؤوف الذي كان يفيض حناناً ويقطر رقة وإخلاصاً . فإلى رحمة الله يا (بروكوفي أوزبتش) ... إلى الجنان الخوالد أيها العزيز ... وداعاً أيها الراحل الكريم ...

وكان الخطيب مبدعاً حقاً في إلقائه فأحرز بهذا إعجاب السامعين ... إلا أن العارفين منهم بالميت أدهشهم مما قاله أشياء . ذلك أنهم لم يفقهوا علة ذكر الخطيب اسم الميت على أنه (بروكوفي أوزبتش) مع أنه كان (كيريل أفانوفتش) . وثانياً أن الكل كان لا يجهل أن الميت قضى حياته في تعكير صفو حياة زوجه ، فكيف يقول الخطيب إنه كان عازباً عن الزواج ؟ وأخيراً لقد كانت للميت لحية حمراء كثة ولم يك بحليقها ... فلماذا يسفه الخطيب بأنه كان حليقها ؟! ... واشتد عجب السامعين وتبادلوا الهمس والنظرات ... وهزوا أكتافهم ساخرين

وتابع الخطيب كلامه : « إي (بروكوفي أوزبتش) لقد كان وجهك شاحباً مرعباً ... إلا أننا كنا نعرف أن وراء ذلك قلباً طاهراً نبيلاً ونفساً كريمة » . وما لبث السامعون أن لحظوا على الخطيب دهشة بلغت حد الذهول. فقد اتجه بصره إلى ركن من الحشد، ثم التفت إلى بولافسكي زائغ البصر، وقال بتهدج : إنه حي!

— من تعني ؟!

— بروكوفي أوزبتش . إنني أراه واقفاً عند القبر

— ومن قال لك إنه الميت ... ؟ إن الذي مات هو (كيريل إيفانوفتش) أيها الأبله ...

— ولكنك قلت لي إن (الأمين) قد مات

— لقد كان (كيريل أفانوفتش) أميناً أيها الأحمق ... لقد حل محل (بروكوفي أوزبتش) بعد أن نقل هذا ككاتب في مستهل العام المنصرم

— وأنى لي أن أعرف هذا ولم يسبق لي به علم؟!

— ولماذا توقفت عن خطابك ؟ استمر أيها البليد

فأدار زابوكين وجهه شطر القبر وواصل رثاءه وعينا (بروكوفي أوزبتش) عالقتان به تحدقان في حنق وغضب ... وما إن انتهى من الدفن وعاد المشيعون حتى أخذ زملاء (زابوكين) يلغطون ... لقد دفنت رجلاً حياً ... وأسرع (بروكوفي أوزبتش) إلى الراثي حانقاً ساخطاً : « لا بأس أيها النبي الأحمق بخطبتك إذا كانت رثاء لميت .. أما أن ترثيني وما زلت حياً فإنها سخرية بي بليغة وتهكماً بخلق فظيع ... لقد قلت إنني لم أقبل الرشوة ولست بذي أغراض ومنافع ... ومثل هذا القول لا يقال عن موظف حي إلا بقصد إدانته واتهامه ... لم يطلب منك أحد أن تصف وجهي بالمخيف المرعب ... إنها إهانة فظيعة سوف ترى مني العقاب عليها »

« بغداد » نبيل عبد الله